تفريغ المجلس (٠٢٠)

"تتمة الباب الخامس - "ذكر بعض رؤساء البربر (تتمة ذكر يوغرطة / غودا / بوكوس الأول / برباص)[١].

[تتمة ذكر يوغرطة]

جبر يوغورطة انهزامه باختراع حرب، الكر والفر، وصار يتأخر نحو الصحراء، كي يبعد عدوه في القفر ثم ينقلب عليه فيشتت شمل، ولكن ميتلوس شعر بذلك، فلم يتتبعه، وبقي جيشه بشمال تبسة مشتغلا بتخريب عمران البربر وإفساد فلاحتهم وحصار المدن التي لم تخضع لقوتهم، وقد ثبت أهل

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، وم يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلہ إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فنواصل في قراءة هذا الكتاب في تاريخ الجزائر، انتهينا إلى الباب الخامس، ذكر المؤلف عنوانا (**في ذكر بعض رؤساء البربر**)، وتوقفنا عند ذكر يوغرطة، وسبق ذكر بعض أخباره، وهنا ذكر بعد أن استقر له الأمر، وتغلب على أبناء عمه، وأزالهم من الملك، وصارت له الإمرة والملك على أرض البربر وذلك لا توافق عليه دولة رومة، لهذا دبرت لهم المكائد، إلى أن انتهى الأمر إلى أن أرسلت إليه أحد قادتها والذي قاوم ذكاء وحنكة يوغرطة، فهذا الذي أرسلته رومة هو ميتلوس -انتهينا عند هذا-

فلما اشتدت على يوغرطة مقاومة ومحاربة هذا القائدة من قادة رومة -كما ذكرنا- صار يوغرطة يميل إلى الجنوب، يفر بجنوده إلى الجنوب ويستعمل طريقة الكرّ والفر، فإذا هدأت الأمور كرّ على عدوه، وأزعجهم، ثم يفر إلى أقاصي الجنوب.

زامة في مقاومة الرومان حتى أدركهم يوغورطة وأجلاهم عنهم وفك حصارهم، ولم تثبت المدن التي احتلها الرومان في هذه الحرب تحت نفوذهم بل خرجت من قبضتهم[1].

ولما رأى ميتلوس ان قوته لا تجديه أمام دهاء يوغوطة، وأن انتصاره عليه لم يجن منه أي فائدة عدل عن الهجوم واختار أن يقابل دهاء يوغورطة بالخداع وأن يأخذه بسلاح الخيانة[2]، وكان الشتاء قد حل وحال بينه وبين أعماله التخريبية، فعاد إلى الولاية الرومانية، وتفرغ لتدبير مكيدة ليوغورطة، فأرسل إلى قائده بوملكار يطمعه في دولة ملكه إن هو أعانه على خديعته، فحدثت بوملكار نفسه بخلافة يوغورطة في عظمته، وانخدع ميتلوس.: وطابت نفسه بخيانة ملكه ووطنه، فأخذ يشير على يوغورطة بترك الحرب وطلب المفاوضة في الصلح حتى أثر عليه وتفاوض مع الرومان[3]. وتمت المفاوضة بالاتفاق على مواد الصلح، وأخذوا في تنفيذها، وكان منها تسليم عدد عظيم من الأفيال والأموال والأسلحة، ورد الفارين من الجيش الروماني، ونُفّذت هذه المواد، ثم صار ميتلوس يلح على يوغورطة في زيارة مركزه. وإذ ذاك شعر بالمكيدة واتضحت له خيانة بوملكار، فمثل به وقتله[4]، وهكذا فليكن سلم الخيانة[5]: لا يبعد صاحبه فيه المرتقى حتى يسقط على أم رأسه من غير أن يفوز بأمنيته[6].

---

[1] أي لما أحاط الرومان بهذه البلدان، ولم تستطع -تلك البلدان- محاربتها خرجت عن قبضتها.

[2] إذا لم تنفع الحرب والقوة ففيه سبيل آخر وهو الخداع والخيانة.

[3] يوغرطة جهل بوملكار هذا مشاورا، بل وأرسله كما مر معنا في بعض المهمات الكبيرة، يعني ترى أنه حتى بعض من يتأخذه أهل المناصب للشورى قد يغر به ويخدعه وقد يخونه، ولهذا صاحب المنصب والرئاسة والسلطة والحكم والإمرة، ومن يتولى أمور الناس، لا بد أن تجتمع فيه الصفات، لا يكون منقادا، ومتبعا على الإطلاق لما يشير به أو عليه أهل مشورته، لابد أن يكون له ما يزن به.

فهنا بوملكار قد غره قائد روما قصد أن يؤتى بيوغرطة ويأتي في مكانه هذا الخائن، فقال ليوغرطة نحن لسنا في قوة هؤلاء، وأن الأولى التفاوض وأن نتصالح، ويستقر لنا الحال والأمر والأمن ... يعني يأتيه بشيء يزين له.

[4] تفطن يوغرطة إلى أن صاحب المشورة كان قد خانه، فمثل به يعني جذعه قطع أطرافه، وجرحه، جعله مُثلة ثم قتله.

[5] هذا كلام الإمام مبارك الميلي.

[6] هذا حال الخائن فإنه لن ينتهي إلى غرضه، بل يقع على أم رأسه، وقد لا يحصل أصلا ماكان يرجوه أو يتمناه.

ولما خاب ميتلوس في هذه السياسة ولم يقع بشركه[1] قنصه[2] عاد الى الحرب[3]، واستأنف أعمال التخريب والتدمير[4]، فذهب إلى باجة وافتتحها من جديد ومثل بأهلها.

وفي سنة (١٠٧) هجم ميتلوس على نوميديا وفر أمامه يوغورطة إلى قرطة، فلحقه وافتتحها، ففر يوغورطة إلى الجنوب، ثم عاد بأهله وأمواله إلى تالة، فتصحن بها فذهب إليه ميتلوس وأخرجه منها، فلحق بالجيتوليين: وتحصن بهم، وأخذ في تنظيمهم، وأرسل إلى صهره بوكوس - وكان ميالا للرومان- يستميله إليه، ففتل له في الذروة والغارب[5]، وخوفه استيلاء الرومان على مملكته إن هم جاوروه بنوميديا، فجلبه إليه، وجعلا موعدا للملاقاة، فالتقيا واتفقا على حرب الرومان، فقصدا بجنودهما قرطة، ولما بلغ الخبر ميتلوس، فخرج منها، ونزل مركزا يليق للدفاع عنها وعن سائر نوميديا.

وفي هذا الحين بلغ ميتلوس أن مريوس رفعته الأمة[6] إلى رتبة قنصل بأفريقية، وأعطي رجالا وأموالا ليتمم حرب يوغورطة، فترك الجنود على حالها، وذهب إلى رومة، ولم نزل أثناء سنة (١٠٧).

جاء مريوس بطائفة من العساكر، ونزل عوتيقة، وانضافت جنوده إلى الجنود التي بأفريقية من قبل، فبلغ جيشه نحو خمسين ألفا، وباشر الحرب حينا.

---

[1] الشرك هو الفخ الذي تنصبه لغيرك، يذكره الفقهاء في باب الحج، في باب محظورات الحج والممنوعات، ومن ذلك الصيد، فيذكرون في بعض الفروع إذا وضع شركا فوقع فيه الصيد، هل يكون بذلك قد اصطاد؟

[2] صيده الذي أراد أن يقتنصه.

[3] لم ينفع الخداع والخيانة فرجع إلى الحرب.

[4] أعمال التخريب والتدمير هي التي تقضي على البلدة والدولة، يسمونها هدم البنية التحتية، مبنى الدولة، وبعدها لكي تعود الدولة لتبني نفسها تحتاج جهدا ومالا وقوة وسنوات ...الخ.

[5] يعني دبر له كلاما حتى يستميله به. فصهره هذا الذي تزوج من بنته كان يميل إلى الرومان كما مر معنا، وكان قد تمالأ مع يوغرطة، لكن لما شاف قوة الرومان أرسل إليهم يجدد عهد الموافقة، يقال **(ففتل له في الذروة والغارب)** هذا مثل يضرب ويذكر والقصد منه أنه يزين له ويغريه في الكلام حتى يستميله.

[6] يعني أمة روما.

لم يخرج ميتلوس من أفريقية حتى أفسد بوكوس على يوغورطة فصار غير واثق بنصرته[1]، فلما برز له مريوس لم يصطف له، بل استمر على حرب الكر والفر: يهجم بفرسان جيتوليا على الرومان حتى يصل إلى مراكزهم، ثم يعود إلى أماكن بعيدة قبل أن يستمدوا لمقاومته، وفي هذا الوقت كان خط الصحراء جميعه تحت طاعته، ووضع أمواله وذخائره بقفصة، فعلم بها مريوس، فذهب إليها ودخلها وأخذ تلك الأموال والذخائر وأحرق المدينة.

كان غرض مريوس أن يلجيء يوغورطة إلى الناحية الغربية لتكون قرطة تحت يده ويتخذها مركزا عاما للجيش، فلما احتل قفصة نال غرضه، وانتقل يوغورطة إلى الناحية الغربية، فسار مريوس إثره وحاربه بالزاب والحضنة[2] وجبالهما شمالا وغربا، حتى أنه استولى على مدينة حصينة فوق جبل عال، وهي من قلاع البربر التي يحسنون وضعها على الكهوف الصعبة المرتقى[3]. وكان بهذه المدينة بقية أموال يوغورطة، كل هذا وبوكوس على الحياد[4].

لما انتقلت الحرب إلى الناحية الغربية أعاد يوغورطة خطابه لبوكوس في التعاون ضد الرومان، ووعده على نصرته ثلث نوميديا، فلباه والتقيا[5]، واجتمع باتحادهما عدد عديد من الجنود بارزا بها جنود مريوس، واشتد القتال يوما كاملا، وأحاط البربر ليلا بالرومان، وأوقدوا النيران يغنون عليها ويرقصون واثقين بانتصارهم على عدوهم، وفي الغد أخذهم تعب السهر، فهجم عليهم الرومان في هذه الحال، وفتكوا بهم فتكا ذريعا، ومن نجا من الموت ركب متن الفرار[6].

---

[1] يعني من باب أنه أرسل إليه وكلّمه.

[2] بسكرة وما حولها.

[3] من عادة البربر أن يكون بناؤهم في أعالي الجبال، يكون حصنا حصينا، الغالب أنهم إذا بنوا تكون خلفهم الصخور تحمي ظهورهم، وأمامهم منحدر، فلن يستطيع العدو أن يصل إليهم، هذا غالب كيف كانوا يبنون حصونهم، اختيار ودهاء في البناء.

[4] صره لم يشارك.

[5] دائما القضية تدور حول المصالح.

[6] هؤلاء أصابهم سهم الموت، وآخرون أصابتهم سهام اللهو. وهذا من قلة العقل والتدبير أن يأخذ الجند مثل هذا التهور وهذا التفه واللهو وعدم الانتباه بما يلزم أن يقوموا به.

ذهب مريوس إلى قرطة بعد هذا الانتصار، فاعترضه البربر في الطريق، وهم من جنود يوغورطة وبوكوس، وأنقسموا أربعة أقسام، ودامت المعركة بشدة ثلاثة أيام، وكانت غرب سطيف، وجاء صيلة مددا لمريوس[1]، وأسفرت هذه الواقعة عن انتصار مريوس، فأتم سيره حتى دخل قرطة، كل هذا ولم تتم سنة (١٠٧).

لم ير بوكوس انتصارا يشجعه وهو من رجال الاستغلال من أبطال الاستقلال[2]، فأرسل رسله إلى مريوس في طلب الصلح[3]، ولما بلغوا قرطة وجههم مريوس إلى رومة ليقدموا مطلب أميرهم إلى مجلس الشيوخ، ووجه صيلة رسولا إلى بوكوس، وبعد مسير صيلة خمسة أيام التقى في الطريق بفولوكس بن بوكوس الذي وجهه والده لملاقاة رسول مريوس.

لما وصل صيلة إلى بوكوس وجد عنده رسولا من قبل يوغورطة، فأجس في نفسه خيفة، ولكنه فاز بدهائه وجبن بوكوس على رسول يوغورطة، واتفق هذا الرسول الروماني وذلك الملك البربري على خديعة يوغورطة، وتجدد بذلك دور ميتلوس وبوملكار[4]، وإذا كان يوغورطة قد نجا إذ ذاك؛ قد قدر عليه أن لا ينجو هذه المرة. ولا ينفع حذر من قدر[5].

---

[1] يعينه ويمده.

[2] هذه جملة عجيبة، الذي ليس له في الحرب أخذ ورد، ولا دخل ولا حظ، لكنه من رجال الاستغلال لمّا يقع الاستقلال.

[3] بوكوس لمّا رأى أن مريوس بقوة، وقد تمالأ هو مع يوغرطة، أرسل إلى مريوس بطلب الصلح.

[4] لأنهما حاولا الغدر لكن لم ينجحا.

[5] هذه كلمة شائعة عند العلماء، وجاءت في حديث مرفوع حسنه بعض العلماء **(لا ينفع حذر من قدر)**، لكن الحذر مطلوب، كنت ذكرت قصة من قبل، تروى عن نبي الله سليمان ﷺ وأنه مر على الهدهد وهو يلعب أمام الشرك -محل الصيد- فقال: احذر من أن تقع في المصيدة، فقال: كيف أقع وأنا حاد النظر، له رؤية قوية، فذهب سليمان ﷺ ولما رجع فإذا به في الشراك قد وقع في الفخ، فقال سليمان: قد حذرتك، فقال الهدهد: لا ينفع حذر من قدر. لكن الحذر مطلوب لا بد منه.

ابتدأ دور الخداع بمراسلة يوغورطة بطلب الاجتماع للمفاوضة في الصلح، فلم ينس دور ميتلوس وبوملكار[1]، وأراد أن يتوثق لنفسه، فأرسل الى بوكوس يجيبه إلى المفاوضة بشرط تسليم صيلة له بصفة ضمان[2]، فتردد بوكوس أياما بين أن يسلم صيلة ليوغورطة أو يوغورطة لصيلة، وأخيرا اختار- وبئسما اختار- أن يسلم ابن جنسه وبعل ابنته للرومان ترضية لهم، فاقتطع ليوغورطة عهودا على الأمان. فانخدع له، وما كان لينخدع لمن هو أدهى منه لولا المصاهرة والجنسية[3].

اتفق الاثنان على الاجتماع بصيلة بشرط أن يكون الجميع مجردين من السلاح، ودس صيلة عساكر مسلحة، ولما اجتمعوا انهالت تلك العساكر على يوغورطة وأوثقوه! ثم ذهبوا به إلى مريوس، وذلك سنة (١٠٦).

وفي أول سنة (١٠٤) ذهب مريوس إلى رومة في أبهة النصر وأمامه يوغورطة بلباسه الملوكي موثقا بالأغلال، فأودع السجن الى أن مات به من شدة الجوع وكلب البرد!.

وهكذا ختمت حياة بطل الحرب وداهية السياسة ورجل الاستقلال، شغل رومة مدة نحو سبع سنوات بحروب تعبت فيها تعبا شديدا. ولم تر منذ نزلت بأفريفية حروبا تضاهي حروب يوغورطة التي اشتهرت في عالم التاريخ القديم[4] حتى خصت بالتأليف[5]. ولم تحصل من خوضها لغمرات[6] هذه الحروب على طائل[7] سوى أخذ شخص يوغورطة بالخديعة والخيانة[8]، وكما شغل هو رومة شغلته هي أيضا عن

---

[1] يوغرطة كان متبعا متيقظا من هذا.

[2] قال أنا آتي ونتفاوض مع الرومان، لكن نلتقي أنا وأنت، وترسل لي صيلة هذا الذي هو رسول رومة، يكون ضمانا عندي حتى لا يقتل.

[3] يعني يوغرطة كان شديد الدهاء والذكاء والفطنة، ولكن أخذ على غرة، سبب الأخذ المصاهرة، يعني أبا زوجته، وكذلك الجنسية أي كونه من جنس واحد وعرق واحد، ونسب واحد.

[4] بل والحديث أيضا لأنهم يدرسون هذه الحروب، وهذه القصص التي وقعت.

[5] فيه تأليفات مختصة في علم التاريخ، وعلم الحروب.

[6] مخاطرات.

[7] نفع.

[8] يعني لم تغلبه بالقوة ومكر الحرب، وإنما خداع وخيانة.

ترقية وطنه، فان ذلك الذكاء النادر لو وجد في عصره هناء مصيبسا[1] لأربى عليه في رفع مستوى دولته من حيث العمران والحضارة ولحصن استقلالها بأكثر مما حصن به سلفه قرطة.

ليس في انتصار رومة على يوغورطة أدنى شرف لها أو ضعة له، بل ما لها فيه إلا العار والشفار[2]، وما له منه إلا المجد والفخار[3].

وقد جلب بوكوس[4] بمصافاته للرومان تكدير حياة البربر بالقضاء على زعيم استقلالهم وتشجيع الرومان على امتلاك وطنهم، ومن نظر خاتمة يوغورطة مع صهره وجده أحق الناس بقول الشاعر العربي:

وإخوان حسبتهمُ دروعا *** فكانوها، ولكن للأعادي

وخلتهمُ سهاما صائبات *** فكانوها، ولكن في فؤادي[5]

---

[1] كان زمنه زمن الهناء، وبناء القصور، والقلاع، والبنيان، والهدوء.

[2] لعل الصواب (الشنار) وهذه من الألفاظ التي تتابع، والشنار بمعنى العار، هذا يظهر لي أصوب، فهي من الكلمات التي تتابع وليس لها معنى استقلالا إلا بأن تردف بما قبلها (على عجره وبجره) و(شيطان ليطان) و(العار والشنار) منها، ونحو ذلك، فيقال إن الكلمة الثانية تأتي على وزان الأولى، وهي بمعنى الأولى لكن لا تأتي استقلالا، هي مجموعة كلمات يذكرها أهل العلم باللغة في بعض الأبواب.

[3] رومة استعملت الخديعة والخيانة، فليس لها إلا العار والشنار، وأما هو فكان صاحب قوة وحرب، فله المجد والفخار، حارب عن دولته حتى أخذ على غرة.

[4] الخائن، والخادع، والماكر.

[5] وتتمة البيت:

وقالوا قد صفت لك قلوب * لقد صدقوا ولكن عن ودادي**

فحال بوكوس هذا الصهر أبو زوجة يوغرط حاله كما قال الشيخ العربي أو الحسن علي بن فضال بن علي بن غالب المُجاشعي القيرواني، هذا هو قال الشعر، توي ٣٧٩هـ ببغداد هذا هو الذي قال هذه الأبيات.

(**وإخوان حسبتهمُ دروعا**) أي يناصرونه (**فكانوها ولكن للأعادي**) الأعداء، (**وخلتهمُ سهاما صائبات**) يعني يرمي بهم الأعداء (**فكانوها ولكن في فؤادي**)، (**وقالوا لقد صفت لنا قلوب *** لقد صدقوا ولكن عن وداده**) صفت قلوبهم لكن وداده، فهم يكرهونه.

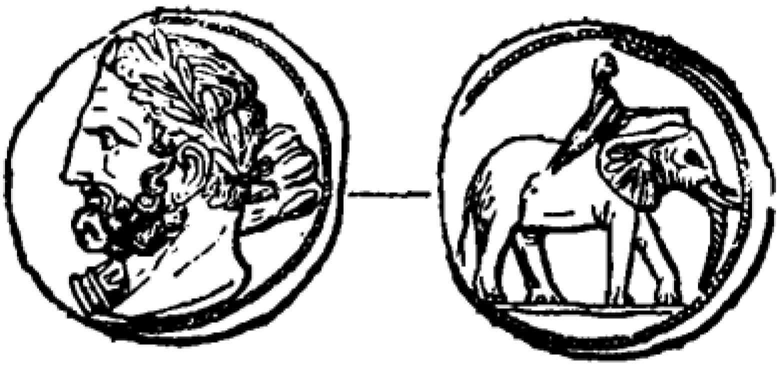

(ش ـ 8)

نقود الملك يوغورطة . وعليها صورة بطل

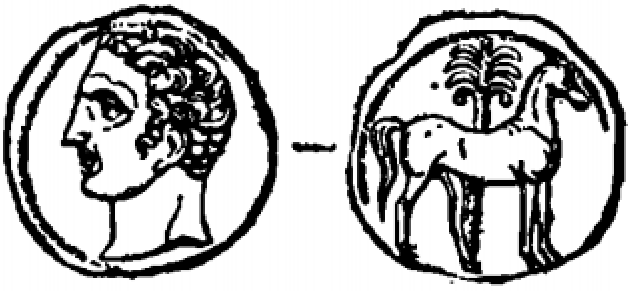

(ش ـ 9)

نقود الملك يوغورطة . وعليها رسمه

هذه نهاية الملك يوغرطة، هنا أورد المؤلف رسوما، نقود الملك يوغرطة وعليها رسمه، وفيه فيل وفوقه رسم، وصورة رجل لعله هو يوغرطة، أو بطل من الأبطال، وكذلك حصان من خلفه نخل، ثم صورة الملك أيضا، هذه النقود التي كانت في زمنه.

[١٤ - غودا (١٠٤ - ١٠٢)][1]

غودا هو ابن منستابعل، وأخو يوغورطة، تولى الملك بعد اعتقاله أخيه، وذلك أن رومة لم تجسر- بعد إلقاء القبض على يوغورطة- على ابتلاع مملكته خيفة العجز عن الهضم وسوء المغبة[2]، فأرجأت تملكها إلى حين، وأخذت تمهد لذلك بتفرقة البربر على الأمراء، وإضعافهم بالفتن الداخلية التي تكثر بكثرة الأمراء[3].

وقد نجت في هذه السياسة[4]، فأصبح أمراء البربر مشاركين لرومة فيما يقع بها من الفتن الداخلية، ومنقسمين على زعمائها[5]: كل يؤيد زعيما برجاله وأمواله، فما من هول يقع برومة إلا وكان صداه بالوطن البربري حتى أن الزعيم الروماني الذي يكتب له الفوز هو الذي يكون له النجاح بأفريقية الشمالية.

---

[1] دامت مملكته سنتان أو ثلاث.

[2] مغبة الأمر أي ما يتبعه.

[3] كلما كثر الأمراء كثر التقاتل والتنازع وضعف البلد.

[4] كما نجح الكفار في هذا الوقت، وإلى حد كبير أعداء الإسلام، نجحوا في إثارة القلاقل بين الدول الإسلامية، بل وفي البلد الواحد، وكان الواجب على المسلمين أن يتحاكموا إلى شرع الله، وإلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يحكّموا فيهم العلماء أهل الحل والعقد، وأهل العلم وأهل الحزم، ويقوموا بذلك، فالله تعالى قال {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}الحجرات٩ هذا هو الواجب، إذا كان شيء تقوم به قمة الدول العربية الإسلامية، أو مجمع الدول العربية، او نحو هذا فإن الأولى أن يصلحوا بين المسلمين، كلما وقع اعتداء من بلد على آخر ونحو ذلك فليس للكفار أن يتدخلوا، ليس للأمم المتحدة أن تتدخل، يعترضون على هذا، ويقال هذه أمور ومشاكل نحلها فيما بيننا، إذا احتجنا إليكم سنتصل ونخبركم، فالمسلمون يحلون مشاكلهم فيما بينهم، هذا الواجب إذا كان لهم ما يسعون إلى حفظ عزهم.

ويبقى مجدهم وتبقى حضارتهم، فيجعلون مجلسا وقمة عربية ومجمعا عربيا ومصلحة عربية وهيئة هي التي تصلح بين المسلمين، لا يحتاج إلى الأمم المتحدة ولا إلى غيرها، هذا شرع الله {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}

[5] وهذا ما يفعله دول الكفر الآن، ولهذا دول الكفر لن تغمض أعينها عن تتبع أهل المناصب والمسؤوليات في دول الإسلام لمعرفة نفسياتهم، ومن تستطيع أن تستميله ممن لا تستطيع، حتى تستطيع أن تسلك طريقا لتحقيق مصالحها بواسطتهم، كما مرت معنا أمثلة كثيرة.

اقتضت تلك السياسة أن لا تملك رومة مملكة يوغورطة ولا تدعها تحت أمير واحد، فقسمتها بين غودا وبوكوس صهره[١]، وكانت نوميديا الأصلية نصيب غودا، وهي تنتهي غربا بصلداي، ولكنه لم يتمتع بها كثيرا إذ توفي بعد ذلك بقليل واقتسم ابناؤه مملكته.

جلس غودا على عرش نوميديا وهو شيخ كبير السن ولم تطل مدته ولا كان له في عنفوان شبابه عمل يشتهر به، ناهيك أنه لم يكن له ذكر في حروب أخيه، وهذا ما تركنا نجهل غودا ولا نعلم شيئا عن أعماله، بل إن عصره كان فاتحة عصر مظلم. قال مرسي: "وهذا العمر كله مظلم أمام المؤرخ لفقدان الوثائق التاريخية عنه" وغاية ما علم عن غودا أنه كان رجلا ضعيف الرأي مسالما للرومان خادما لمطامعهم، ومثل هذا هو الذي تقدمه رومة للملك إضعافا للأحرار وإخفاتا لصوت الوطنية[٢].

---

[١] لأنه والد زوجة أخيه.

[٢] وإن كان ينادون بها ولكن لا وجود لها فيهم أصلا،... محبة الوطن والأرض والدفاع عنه، ... وبذل النفيس لأجل حفظه بثوابته،... وطنية الإسلام ... وحفظ الأصل والجنس ...، هذا لا فائدة من ورائه، هذه هي حقيقة الوطنية، الذين يبذلون أغلى ما يمتلكون من أجل إعزاز بلدهم، وحفظه وتثبيت الثوابت وترسيخها فيهم، ويبذلون في ذلك الغالي والنفيس، ويتحملون لله عز وجل في سبيل ذلك، ان يعيشوا عيشة لربما ليست من أبسط المعيشة بل ربما فيها الكثير من المصاعب ونحو ذلك.

وعلى سبيل ذكر الوطنية هذه وإظهار حقيقة من كان يحب هذا البلد، وينافح من أجل إرساء معالم الدين فيه، فالإمام علامة الجزائر محمد البشير الإبراهيمي $ هذا علامة من علماء الإسلام، ويكفيه شرفا المآثر التي تنقل عنه، ومن ذلك –وقد ذكرتها لكم– أيام نزل دمشق، في إحدى فنادقها، كان كل يوم يأتيه جمع من أهل العلم، يصطفون قصد زيارته، ومن هذه الزيارات كان فيها محدث الشام العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني $، وكان في ضمن عموم الطلاب وأهل العلم الذين يزورونه، وكان للبشير الإبراهيم مجلس خاص، يعني أصحاب المقامات العليا في العلم، والأدب واللغة، والعربية، وقد عرض عليه ذاك الوقت أن يكون القائم على مجمع اللغة العربية، من أسس مجمع اللغة العربية؟ الطاهر السمعوني الجزائري من عندنا، من البيّض أو نحوها من النواحي، علامة جزائري، هو الذي أوجده، إمام في اللغة، وفي علوم الإسلام، له كتب في بعض العلوم من أدق ما يكون، له كتاب "توجيه النظر في علم الأثر" في مصلح الحديث توفي ١٩٢٠هـ كل من جاء بعده ينقل عنه المبارك فوري شارح الترمذي ينقل عنه، وهكذا غيره.

عرض على الشيخ البشير الإبراهيمي أن يتولى ذلك في ذاك الزمان، والشام في زمن الأربعينيات كانت من حيث التطور والحضارة ماكان فيها من تقدم ليس لغيرها، ومع ذلك لم يبق هناك، ودخل إلى هذا البلد الجزائر، ليدرس في الكتاتيب،

وفي بيوت مبنية من الطين، وليجلس في النوادي والمقاهي يدرس الناس ويعلمهم، وإنما الذي أرجعه هو حبه لوطنه ولبلده، يريد أن يرسخ فيها ويثبت معالم هذا الدين الإسلامي.

ويحدث أحد الأساتذة المختصين في هذا الباب -التاريخ- أنه سمع من عاصر وعاش مع الشيخ البشير الإبراهيمي، وأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ مات ولا يملك سكنا، بل كان يكتري هاهنا وهاهنا، وينزل هاهنا وهاهنا، حتى أنه قال هذا الأستاذ -وهذا من النكت-: أنزلوه في العاصمة واكتروا له غرفة، وكانت في الطابق الرابع، وهو عنده شيء من العرج في رجله، كان يريد مسكنا أرضيا، فلما دخل المسكن وكان معه من دله عليه، فتح له النافذة وقال: شوف يا يشيخ المنظر من هنا يطل على البحر والهواء، يقول المحدث: فعلم الشيخ أنه بين الناس من لا يعرف قدره وما يلزمه، فكان أولى أن يحتفى به، وينزل المنزلة التي هو لها أهل، والشيخ كانت فيه دعابة، فقال للذي أحضره لهذا السكن: ما اسم هذه المنطقة؟ قال: اسمها (madame d'afrique)، فقال تبحثون لها عن (Monsieur d'afrique) -رحم الله البشير الإبراهيمي-

فهو ترك أبهة كانت في الشام، وجاء إلى هنا مضحيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هؤلاء الذين هم حقيقة لهم حب لهذا البلد، ويبذلون ما يجدونه وما يملكون من أجل ترسيخ وتثبيت المعالم الحقة، في هذا البلد، وليس فقط صراخا أو دعوى أو قولا يقوله الإنسان، بل حقيقتها بذل الغالي والنفيس حتى يقال مثل هذا.

[١٥ - بوكوس الأول (١٠٤ - ٨٠)]

بوكوس الأول كان ملكا على موريطانيا الغربية (مراكش) حوالي سنة (١١٦) ومسالما للرومان، ولما كان يوغورطة يعلم منه ذلك ويعلم من نفسه عداوته لهم أراد أن يجلبه إليه قبل الشروع في تنفيذ بزنامج عداوته[١]. وقد نجح في ذلك فحارب به الرومان بعد ما حذره إياهم ونفخ فيه نسما من روحه، ولكن "ليس التكحل في العينين كالكحل"[٢]، فعاد أخيرا إلى نصرة الرومان وأعانهم على القاء القبض على يوغورطة بالخديعة والخيانة. ولولاه ما أمكن الرومان أن ينالوا شيئا من يوغورطة[٣]، وقد ترك بفعلته تلك في تاريخه نقطة سوداء بل بحيرة حمئة[٤]، ويصعب على الاعتقاد بانه شارك الرومان في بشاعة هذه الخيانة، ويظهر لي أنه كان قليل التدبير فانطلت عليه حيل صيلة واغتر به فغر غيره، وحينما شاهد الخيانة أغضى عنها ضعفا وجبنا[٥].

---

[١] هنا فيه تكرار لما سبق، نقرأه ونمرّ.

[٢] هذا مثل عربي، ليس التكحل في العينين ليس كالكحل، التكحل هو جعل مادة على الأشفار أو فوقها، أو بمساواتها وموازاتها، فتظهر جمالا وبهاء في العين، هذا تسلط، تكحّل، تفعّل، هل هذا مثل الكَحَل نفسه الذي هو خلقة كأنه مكتحل، هو أصلا فيه هذا الجمال، فليس التكحل في العينين كالكَحَل، مثل يضربه العرب يقصدون به هذا. ومنه قول بعضهم يمدح غيره:

لأن حِلمك حلم لا تكلّفه *** ليس التكحل في العيني كالكحل

يخاطب هذا الذي يمدحه، يعني أنت حليم، وهذا الحلم الذي فيك لست متكلفا بل أنت طبعا وجبلة صاحب حلم. فهذا بوكوس طبعه الغدر، وأن يصانع من هو أكثر مصلحة، فحاول يوغرطة أن ينفخ فيه روح الشجاعة والجرأة والإقدام ولكن لم ينفع ذلك لأنه أصلا هو ليس فيه ذلك، فكان يتصنع الشجاعة.

[٣] بإذن الله تعالى، يعني هو الذي كان متسببا، وإلا هذا قدر.

[٤] والحمأ يطلق على ماء فيه اسوداد مات قبل الميلاد ولا يزال يتكلم عليه إلى الآن، وأنه صاحب غدر وخيانة، فالإنسان يجعل في تاريخه ويسجل في صفحاته ما يتشرف به أمام الله ﷻ أولا كذلك أمام الناس.

[٥] المؤلف مبارك الميلي يقول: صعب أن أقتنع بأنه يغدر بصهره - زوج ابنته - لكن لعله كان ضعيف الرأي، قليل الحيلة، فغره ذلك رسول روما بدهائه، ولكن لما وقع في الحيلة والخديعة جبن عن أن يظهر أنه لم يكن موافقا، وأن يظهر بسالة وشجاعة.

وعلى كل حال فإن رومة منحته- جزاء ذلك- جزءا كبيرا من مملكة يوغورطة، وهو ما بين صلداي وملوشات، إضافة إلى مملكته القديمة، وأطلق على هذه الولاية الجديدة اسم "نوميديا الغربية" لأنها كانت تحت ملك نوميديا، وعرفت نوميديا القديمة باسم "نوميديا الأصلية"[١].

وبهذه الولاية صح أن نعد بوكوس بين ملوك الوطن الجزائري، وباضافتها إلى مملكته القديمة أصبح ذا مملكة واسعة تشمل ما بين صلداي شرقا، والمحيط الاطلنتيقي غربا، ورغما من هذا الاتساع كله لم تكن له عزة نفس ونخوة ملك، فيترفع عن خدمة الرومان الذين لا يزيده جبنه معهم وخدمته لهم إلا طمعا في الوطن البربري وخيراته.

بعد أن فعل فعلته الأولى عززها بثانية، وذلك أنه حدث برومة شقاق بين مريوس وصيلة ففر الأول إلى يرباص الذي أعانه على منافسه، فأرسل صيلة قائده بمبيوس إلى أفريقية بجنود كثيرة، وأعانه بوكوس بفيلق عظيم من فرسان موريطانيا تحت رئاسة غودا (قيل هو ابن بوغيد بن بوكوس وقيل حفيد بوغيد) وكان يرباص قد فر من بمبيوس، فاعترضه غودا وشتت جموعه، وأخيرا قتله[٢].

وهكذا لم نر لبوكوس إلا إعانة للرومان على أبطال البربر الذين يأنفون من استعباد الأجنبي لهم ولقومهم.

وبعد أن ملأ صحائف حياته بمثل هذه الأعمال توفي في حدود سنة (٨٠) وترك ولدين اقتسما مملكته.

---

[١] لأنه أضاف لها الجانب الغربي من هذا البلد.

[٢] يعني كان الأولى من بوكوس هذا أن يتركهم يتقاتلون ليضعف شأنهم.

[١٦ - يرباص (١٠٢ - ٨١)]

اختلف في اسم هذا الملك: فمنهم من سماه يرباص، ومنهم من سماه هرتاص، وهو من أسرة يوغورطة، قال مرسي: " والظاهر انه ابن غودا أخي يوغورطة ".

انتصب بعد وفاة غودا على نوميديا الوسطى، وكان- كبقية أمراء البربر- تحت سيادة رومة: يذهب إليها، ويرسل أبناءه ليتعلموا بها، وتخلق بالأخلاق الرومانية، وصار يتكلم باللغة اللطينية، ويحافظ على الفنون الرومانية، ويشيد بالمدن البناءات الأنيقة، ويعتني بالفلاحة.

ومع كونه تحت سيادة رومة وآخذا من أخلاق أهلها وحضارتهم كانت غايته تهيئة الأمة البربرية للاستقلال التام وطرد النفوذ الروماني من وطنها.

وفي مدته نازع صيلة مريوس على رئاسة رومة، فرأى مريوس أنه عاجز عن مقاومة خصمه، وأراد أن يستعين بأمراء البربر، فوجه ولده إلى هيمصال الثاني من ملوكهم يعرض عليه حمايته وإعانته فلم يقبله، لأنه رأى نجاح صيلة برومة، فخشي عاقبة قبوله، إذ ذاك عاد الولد الى والده مريوس، وأشار عليه بالفرار، ففر الى الولاية الرومانية بأفريقية، ولكن وإليها طرده، فبقي هائما بحدود نوميديا، ثم تمكن من الفرار إلى قرقنة، وأخيرا أجاره يرباص، وقضى عنده شتاء سنة (٨٨).

كانت حماية يرباص لمريوس بعد إعراض هيمصال عنها سببا في انتشاب حرب بينهما انتصر فيها يرباص وطرد هيمصال من مملكته واستولى عليها، وبذلك أصبح مريوس منتصرا بأفريقية ومنهزما برومة. وكانت أتباع صيلة تأوي إلى عوتيقة، فأرسل ستة فيالق بقيادة بمبيوس لحرب مريوس، وتقابل الجيشان فانهزم مريوس، وفر يرباص بطائفة من جنوده، وكان بوكوس قد وجه كتيبة من الخيل تحت رئاسة غودا نصرة لبمبيوس، فالتقى غودا بيرباص في الطريق وشتت جنوده، ففر إلى عاصمته بولريجيا وهجم بمبيوس على نوميديا فحال دون إنجاد أهلها لملكهم يرباص، فاضطر إلى التسليم لغودا فقتله! وذلك سنة (٨١).

قد تدرك نباهة يرباص وحذقه وإخلاصه لأمته من حمايته لمريوس، ذلك أنه لم يكن يخفى عليه ضعف هذا الرجل برومة وتشرده بأفريقية، فكان تحزبه له لضرب من السياسة في صالح قومه: يريد أن

يشاغب به على رومة، وان أتيح له الفوز وجد غرضه معه أكثر مما يجده مع صيلة، فإن الضعيف يرى الانتصار له مزية واحسانا، والقوي يحسبه تملقا وهوانا، وإذ لم ينجح يرباص في سياسته فعندي أنه يكفيه أن مات ميتة شريفة بانتصاره لحزب ضعيف من حزبي أعداء قومه ووطنه.

وبموته انقضت الفتن الداخلية بين أمراء البربر، ومدتها سبع سنوات[1].

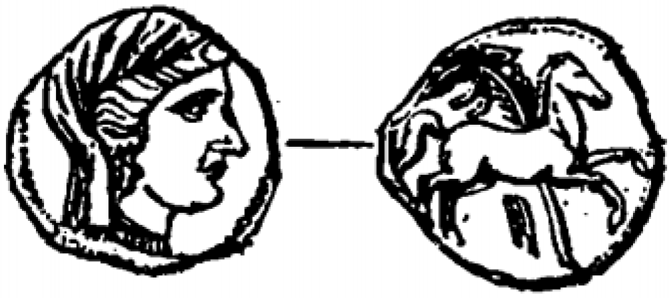

(ش — 14)
نقود الملك يرباص وعليها رسمه

[1] هنا ذكر رسما للملك يرباص وعليها رسم.

[١٧ - هيمصال الثاني (١٠٣ - ٥٠)]

هيمصال الثاني هو ابن غودا، وأخو يرباص علي الظاهر، انتصب ملكا بشرقي نوميديا بعد وفاة أبيه، ولعله كان يرى له الحق في الاستقلال بمملكة والده دون يرباص، ويترصد الفرص لضم مملكة أخيه إلى ما تحت يده.

فلما تنازع مريوس وصيلة انتصر للثاني لعلمه بقوته ورد طلب الأول وحبس الأول وحبس ولده فلم ينج إلا بتدبير إحدى جواريه، ولعله كان يرجو من تحزبه لصيلة ان يعينه على أخيه، فلما انتصر يرباص لمريوس رأى ان الوقت قد حان للاستقلال بنوميديا، فاشهر عليه حربا انجلت عن هزيمته، وأصبح صفر الكفين من الملك، وأشبه في التدبير حنيناً صاحب الخفين[١].

ولما قتل يرباص وسقط حزب مريوس من رومة وأفريقية معا إعادت رومة لهيمصال ملكه مضافا إليه مملكة يرباص، ثم حدث بينه وبين ماصنتة (من أمراء البربر) خلاف انهياه إلى مجلس الشيوخ برومة، وكان له ولد يدعى يوبا فوجهه إليها نائبا عنه، ففاز على خصمه ومتّن الروابط بينه وبين بمبيوس، وقد تقدم أنه بموت يرباص انتهت الحروب بين أمراء البربر فبقي هيمصال بمملكته هادئا مطمئنا مستعينا بابنه يوبا منشطا للفلاحة ناشرا للحضارة الرومانية محافظا على فنونها حتى توفي سنة (٥٠)[٢].

---

[١] كما يقال في المثل (عاد بخفي حنين) هذا المثل يضرب للذي لم يحصل شيئا، وله أصل في قصته. فالذي يدبّر ثم لم يخرج من التدبير بشيء يقال (عاد بخفي حنين)

[٢] هكذا الشأن بينهم، يخطبون ود رومة، كما عليه الآن كثير منهم.

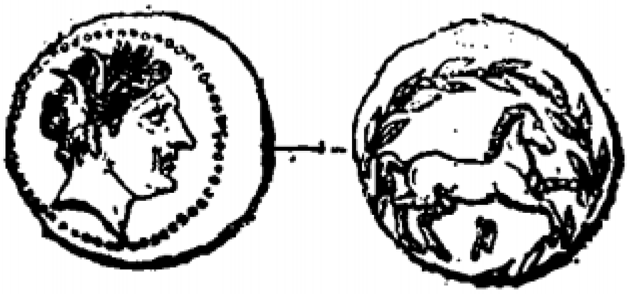

(ش - 15)

نقود الملك هيمصال وعليها رسمه

[١٨ - ماصنته]

هو أحد ملوك البربر. كان معاصرا ليرباص وهيمصال، وعاش بعد يرباص، قال مرسي ناقلا عن المؤرخ بول (Poulle): "**إن مع هذين الملكين (يرباص وهيمصال) ثالثا يدعى ماصنته، كان على ناحية سطيف، وكانوا كلهم تحت نظر رومة، وكانت غايتهم جميعا تهيئة الأمة لحكم نفسها بنفسها، وكان الجيتوليون مستقلين تحت سادات من عظمائهم**".

وعليه فان حكومة هؤلاء الثلاثة لم تتناول جهة الصحراء، فالجيتوليون الذين كانوا خضعوا ليوغورطة، وحاربوا معه الرومان لم يخضعوا لهؤلاء الملوك الذين خلفوا يوغورطة، وسر ذلك- فيما أرى- أنهم لم يزالوا ممتنعين عن التداخل الروماني، فخضعوا ليوغورطة لما رأوه عدوا للرومان، وابتعدوا عن خلفه لما رأوا بهم سمة الانقياد لهم.

كان ماصنتة مجاورا ليرباص ولم يبلغنا شيئ عن علاقتهما أكانت حسنة أم غير حسنة، وقد تقدم أن هذا الدور من التاريخ يعلوه قتام الخفاء، ومع ذلك يمكننا أن نحكم بأنهما كانا متسالمين، وذلك يدل على ضعف نفوذ رومة لديهما، لأن أثر نفوذها يظهر في التفرقة بين الملوك وإشغالهم بالفتن، ويؤيد حكمنا ذلك أن التاريخ قد أعلمنا بما كان بين يرباص وهيمصال من الحروب، وأعلمنا أيضا بما وقع بين هيمصال وماصنتة.

وذلك إنهما لا تجاورا بعد قتل يرباص وقع بينهما خلاف، فترافعا إلى مجلس الشيوخ، وذهب يوبا نائبا عن أبيه، وكان يوليوس قيصر مدافعا عن ماصنته، واشتد في دفاعه وتحمس حتى قبض يوبا من لحيته، وغضب يوبا من ذلك وأسرها في نفسه، هذا ما أمكننا الوقوف عليه من حديث هذا الملك.

ولم نعثر على تاريخ ولايته ولا وفاته، وغاية العلم أنه كان ملكا فيما بين سنتي (٨٨ و٨٩) ومحقق أنه عاش بعد يرباص، وتولى الملك قبل سنة (٨٨)[١].

[١] نكتفي بهذا إن شاء الله، والله تعالى أعلى وأعلم.